دور الجزائر في أدب أندريه جيد

عمار رجال

قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة باجي مختار – عنابة

أستلم في 11/01/02 قبل في 11/12/02

الملخص

تشكل اهتمامات أديب ما وكتاباته عن بلد ما موضوعا ثريا للدراسات المقارنة. ويتناول هذا المقال ما كتبه الأديب الفرنسي أندريه جيد عن الجزائر، وكيفية تفاعله مع هذا البلد، بكل مقوماته، من دين، وحضارة، وشعب، وعادات، وتقاليد وما ميّز هذه الكتابات من واقعية وخيال وحقيقة وما نتج عنها من فن وإبداع...

Résumé

L'intérêt que porte tout homme de lettre à un pays et les œuvres qu'il lui consacre constituent un riche sujet pour la littérature comparée. Cet article s'intéresse aux échos de l'Algérie dans les œuvres d 'André Gide, et l'influence qu'elle a eu sur lui, à travers toutes ses composantes : sa religion, sa culture, son peuple, ses us et ses coutumes... Ce qui a caractérisé ces œuvres (réalisme, imagination et réalité)... Et ce qui en a résulté (Art et romantisme).

مقدمة

كتب أندريه جيد (André Gide) في مختلف الأنواع الأدبية: مسرح، ورواية، وقصة قصيرة، ومقال وتعددت موضوعات مؤلفاته وتنوعت، كما تعددت مصادرها، حيث شملت القديم والجديد من جهة، واهتمت بالغربي والشرقي من جهة أخرى. لم يكن أندريه جيد لينتظر وقتا طويلا حتى يظهر على الساحة الأدبية، فقد بدأ في شقّ طريقه نحو المجد ولما يبلغ الثلاثين

من عمره، ومن هنا تبرز قيمة مؤلفاته الأولى التي فسحت له المجال ومهدت له الطريق: إنها المؤلفات التي كتبها بعد زياراته الجزائر، وأبدع فيها بعد أن كتب مؤلفات لم تحظ باهتمام القارئ، كمؤلف " نرسيس " (Le traité de Narcisse) 1891، و" رحلة أوريان " (Le voyage d'Urien) 1892 ... وقد توصل الباحثون والمهتمون بإنتاجه إلى نتيجة هامة، مفادها الأثر الكبير الذي أحدثته رحلاته إلى الجزائر في مؤلفاته الأولى، مما يستدعي التأمل في بعض هذه المؤلفات، تأكيدا لهذا الحكم، كـ " قوت الأرض "، و" اللاأخلاقي "، و" لو لم تمت الحبة "، و" اليوميات ".

1 - قوت الأرض والقوت الجديد 1897 (les nourritures terrestres et les nouvelles nourritures):

منذ أن وطأت أقدام جيد أرض الجزائر في خريف 1893، لم تفارقه فكرة وضع كتاب فريد من نوعه، لا من حيث الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه، أو الموضوع الذي يعالجه. فقد تيقن منذ وصوله إلى الجزائر من قدراته، واكتشف أن أهم شيء بالنسبة إلى الرحلة هو ما تتميز به من قوة تجعله يتساءل ويسأل العالم من حوله. فالسفر يتيح، في كثير من الأحيان، كشفا جديدا مثيرا لما يكتنف المرء من عزلة وما يشعر به من وحشة الوحدة. فهو يرفع ستار الجمود والتحجر ليكشف عن السمات الباهتة للقلق والاضطراب، ذلك أن مجابهة عالم غريب من شأنها أن تكشف للفرد عن نفس جديدة.

واستطاعت الجزائر، هذا العالم الغريب، أن تكشف لجيد لا عن نفس جديدة فحسب، بل حتى مبدع جديد. كان يكفيه القيام بأربع رحلات إلى الجزائر ليحقق حلمه في إنجاز كتاب عظيم ! هو " قوت الأرض " الذي أقام الدنيا وأقعدها واستحوذ على جمهور القراء [2]، بعد إعادة طبعه ونشره لمرات. تحدث فيه عن الدين والأخلاق والأسرة والفكر والرحلة والمدن والطبيعة والنباتات والصحراء والفصول الأربعة والعادات والتقاليد. وما يلفت انتباه القارئ على امتداد صفحات هذا الكتاب هو حضور الجزائر المكثف بمكوناتها المختلفة، من دين وحضارة وشعب وطبيعة ومدن وأسواق. هذا " الحضور " الذي أراده جيد شاهدا على آرائه ومواقفه حينا، وعامل إلهام ووحي حينا آخرا.

لم يتوقف عطاء الجزائر تجاه هذا الكاتب ؛ فبعد أن أنقذت حياته ومكنته من مجابهة قدره، زودته بعناصر مختلفة هي أساس مؤلفه " قوت الأرض ". يتمثل العنصر الأول في الدين الإسلامي، الذي اتخذ منه وسيلة لمجابهة عقيدته

(المسيحية)، التي تتجاذبها مبادئ الكاثوليكية والبروتستانتية من جهة، وإبداء آرائه في مجال الدين من جهة أخرى:

« النظرية المسيحية ... غير مقبولة، ومع ذلك فلا تستطيع زعزعتها آراء الماديين، هل يجب علينا أن نجد الله بالخطأ لأننا شككنا وأنكرنا إحدى خوارقه ؟
هل نجرد الله من صاعقته لأننا فهمنا سر حدوث البرق ؟ »[3]...

تتجلى في " قوت الأرض والقوت الجديد " رغبة جيد القوية في الإيمان بالله، ولكنه لا يريد أن يؤمن إيمان المقلّد، وإنما إيمان المجتهد [4]. ولم تمنعه رغبته هذه من الوقوع في كثير من التناقضات، فبعد أن سجّل في كتابه " رحلة أوريان " موقفه من آذان الصلاة: « كانت نغمات هذا الدعاء مدهشة إلى درجة أننا بقينا بلا حراك، في حالة من النشوى وفجأة ينطلق مع بزوغ الشمس نشيد من مئذنة، النشيد الأول نحو الشمس الصاعدة، نشيد مؤثر عجيب كدنا نبكي له »[5]. نراه بعد حوالي خمس سنوات، يسجل شيئا آخرا في " قوت الأرض والقوت الجديد ": « الإيمان بآلهة اليونان أسهل عندي من الإيمان بالله الكريم. ولكن هذا الإشراك أنا مجبر على الاعتراف به شعريا، وهو يعادل إلحادا ثابتا. من أجل إلحاده حكم على سبينوزا، ومع ذلك كان يسجد للمسيح بحب واحترام وورع أشد مما يفعله الكاثوليك أحيانا » [6].

لم يستقر جيد على موقف ثابت فيما يخص عقيدته، ولكن الثابت هو أن رؤيته للحياة والوجود بمنظار ديني ما فتئت تتطور وتتغير منذ أن وصل إلى الجزائر بفضل ما أتيح له من فرص للتأمل والمساءلة... فها هو يصل إلى قناعة كم حثّ الإسلام على العمل بها: « أما أنا فقد أبغضت كل ملكية خاصة، فمن العطاء بنيت سعادتي، ولن ينتزع الموت من يديّ كبير أمر. سعادتي هي في أن أزيد سعادة الآخرين. أنا محتاج إلى سعادة الجميع لأكون سعيدا »[7].

لا شك أن القارئ يعجب لما طرحه جيد من أفكار تتعلق بالدين، ولو كانت متناقضة أحيانا، فهي لا تقوم على أساس عاطفي بقدر ما تقوم على أساس قناعة وتأمل. لكنه يدرك في الوقت نفسه دور الجزائر في تهذيب الكاتب ومواقفه التي تنزع أحيانا نحو الإلحاد والتطرف والثورة.

وتمثل مدن الجزائر بكل مميزاتها الحضارية والطبيعية... العنصر الثاني الذي جاد به هذا البلد، ليزيد من قيمة كتاب أندريه جيد ووزنه. فالقارئ يجد نفسه

أمام صور متباينة تدعو إلى التأمل والإبداع، لأن جيد بما أوتي من فن وقدرة ينتقل من:

« في فلورنسه تباع الورود: وفي بعض الأيام يملأ شذاها المدينة بأسرها. كنت أتنزه كل مساء في " كاسين " والأحد في حدائق بوبولي غير الزاهرة » [8].

ينتقل إلى الحديث عن مدن الجزائر وما يميزها:

« حدائق بسكرة:
كنت تكتب لي يا أتمان [9]، إني أحرس المواشي تحت النخيل الذي ينتظرك، سوف تعود ! والربيع سوف يكون في الأغصان فنتنزه ولا تشغلنا الأفكار...
لن تذهب البتة يا أتمان إلى ظلال النخيل حارسا المعزى فتنتظرني وترى هل جاء الربيع. ها هو الربيع قد بدا في الأغصان. إننا نتنزه دون أن يكون لدينا أفكار » [10].

ولعل ما يثير انتباه القارئ في حديث جيد عن المدن الجزائرية (مثل: بسكرة والبليدة والجزائر وتوقرت) توفر الصدق في أسلوبه وعنايته الفائقة واهتمامه البالغ بكل ما تقع عليه عينه في هذه المدن، ويلاحظ من جهة أخرى بأن جيد لا يقف مطولا في حديثه عن مدينة نابولي مثلا: « وفي نابولي حدائق منخفضة تحاذي البحر كأنها رصيف له. وتفسح للشمس مجالا للمرور » [11]. بينما يجد لذة ومتعة في الحديث عن مدينة البليدة:

« بليدا ! بليدا ! يا زهرة الساحل، أيتها الوردة الصغيرة، رأيتك فاترة ومعطرة، مليئة بالأوراق والأزهار. كان ثلج الشتاء قد ولى. وفي حديقتك المقدسة يتلألأ جامعك الأبيض والعريشة تنوء بالأزهار، وشجرة الزيتون تختفي تحت الأكاليل التي تضفرها لها الأزهار. والهواء العليل يتضوع بالعطر الذي تنشره أزهار البرتقال واليوسفي. ومن أعلى أفنانها البيضاء كانت الدوحات تقذف قشورها البالية. كانت معلقة، وقد ضعفت مقاومتها، كثوب جعلته الشمس لا جدوى له، كأنه أدبي القديم الذي لا يصلح إلا للشتاء » [12].

لم يقتصر دور الجزائر في " قوت الأرض والقوت الجديد " على عـاملي الدين الإسلامي، بل ساهمت، هذه المدن المختلفة المذكورة أعلاه، إلى حـدّ بعيـد بطبيعتها في إثراء هذا المؤلف وشدّ انتباه كل مطّلع عليه. كانت رغبته في تصوير طبيعة الجزائر تنطلق من دافعين: يعبّر الأول عن مدى إعجابه بطبيعة هذا البلـد والأثر الإيجابي الذي تتركه في نفسه، حيث يشعر بالراحة والسعادة، بينما يـوحي الثاني بما تمنحه هذه الطبيعة من فرص للتأمل والإلهام والإبداع: « أيتها الأرض القاحلة، الأرض التي لا خير فيها، ولا عذوبة، أرض العاطفة والـورع، الأرض التي أحبها الأنبياء. آه، أيتها الصحراء المؤلمة، صحراء المجد، إني أحببتـك حبّـا جمّا » [13].

تحدث جيد عن طبيعة الجزائر بمختلف مظاهرها من حدائق وفيافي وجبال وواحات ومروج... وتذوّق من خلالها كل الألوان وأضفى عليها مـن أحاسيسـه وعواطفه... كان يريد من وراء ذلك كله أن يحقق ذاته ويفكّ قيوده وينطلق حـرّا بفضل الطبيعة والحب.. ولا جرم في أن يجـزم أحـد بـأن طاقاتـه الإبداعيـة التي تجسّدت في مؤلف " قوت الأرض والقوت الجديد "، فتّقتها الجزائر بسـمائها وطبيعتها ورائحة نباتاتها...[14]، لأنها وجدت في نفسه صدى وتجاوبا.

2 - اللاأخلاقي 1902 (L'immoraliste)

يمثل مؤلف " اللاأخلاقي " مرحلة هامة في حياة جيد الأدبيـة، واعتبـره كثير من النقاد نقطة تحوّل بارزة في كتاباته: « يعتبر " اللاأخلاقي " أول مؤلـف قيم من مؤلفات جيد ، تمكن فيه من الوسيلة الحقيقية للتعبيـر... سـيدخل أخيـرا المعترك » [15].

يتجلى دور الجزائر في " اللاأخلاقي " باعتبارها أولا تحتل جزءا كبيـرا من مجال المغامرات والرحلات التي قام بها البطل " ميشال " صـاحب الأمـلاك والمزارع في نورمنديا (Normandie) مع زوجه وحكايتهما العديدة مـع أهـالي مدينة بسكرة وغيرها. لقد استفاد " ميشال " كثيرا من تجربته الحية فـي وصـف الطبيعة وفي تأثره بها [16].

خلبت مدينة بسكرة بطبيعتها لبّ الكاتب واستحوذت على شعوره وكيانـه، وستبقى المحرّك الأساسي لانطلاقاته واندفاعاته... وهذا في حدّ ذاته يقـدم شـهادة حية للقارئ عن قيمة الرحلة وصفاء الشرق ونقائه، كما يستوقفه - ولو للحظات - لمراجعة ما في العرب.

إن حضور الجزائر في " اللاأخلاقي " يفتح عين القارئ على عالم تغمره السكينة والبساطة والطمأنينة... هو عودة صريحة إلى زيارة هذا البلد والإقامة فيه... أما الدور الآخر الذي لعبته الجزائر في " اللاأخلاقي "، فيتمثل في كونها استطاعت أن تكشف عن حقيقة أبناء الشرق الذين يكفي الجلوس معهم وتجاذب أطراف الحديث للوثوق فيهم والاعتزاز بشخصيتهم والرغبة في اتخاذهم أصدقاء دائمين: « لقد زادهم تواضعهم رفعة وأخلاقهم كبرياء، وذكاؤهم فخرا... بل إن أسماءهم توحي بالخير والصدق كالهاشمي، والمختار، والبشير، والصادق »[17].

وقد يتساءل هذا القارئ أين صورة هؤلاء الجزائريين من صورة أولئك العاملين بمزارع " ميشال " ؟ فبقدر ما يحثنا الهاشمي وجماعته على البقاء والجلوس معهم بحثا عمّال المزارع على النفور والهروب... ويصور الكاتب بكل اعتزاز موقف البشير من أمّه عندما وجهت له بعض العتاب واللوم وكيف استسلم طائعا لأوامرها، وكيف كان عاشور يسعى لقوت يومه من كسر حجارة الطرقات[18]. كان الكاتب يجد لذّة ومتعة في الحديث عن الشبان الجزائريين، فكانوا هم بحيويتهم وسذاجتهم ونشاطهم يثرون فكره وعقله، ونتج عن ذلك إثراء مؤلفه " اللاأخلاقي ".. إنهم جزء منه لا يمكن إغفاله ولا إنكاره. ويكشف من جهة أخرى عن حقيقة عاشها وآمن بها: هي موقف ميشال الذي قدم إلى الجزائر مريضا مثقل الفكر والجسد، رغم ما كان يتمتع به من وفرة المال والجاه... لكن الجزائر بدفئها وأهلها وحتى ببؤسها استطاعت أن تُذهب عنه همّه، وتزيح عنه غمّه... أدرك ميشال ثمن شخصه، الذي لا يساوي شيئا في حضارة غربية، بينما يحظى الإنسان في الحضارة الشرقية بكل تقدير واهتمام.

هكذا، تنزل الجزائر بثقلها وأبعادها في مؤلف " اللاأخلاقي "، لتزيده عمقا فلسفيا، وبعدا حضاريا، وحقائق تاريخية لا يمكن للقارئ إلا أن يقف منها موقف الإعجاب والتقدير... ويؤمن بالحكمة القائلة " يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر ". لم تكن انطلاقة أندريه جيد الحقيقية من قصور باريس وغيرها، ولكن من جلسة في المروج من الأطفال الرعاة وقطعان أغنامهم ونغمات آلتهم المفضلة (الناي).

3 - " لو لم تمت الحبّة " Si le grain ne meurt 1920:

يتحدث جيد في كتابه هذا عن مرحلة هامة من حياته، هي مرحلة الطفولة والشباب وما آلت إليه شخصيته من تطورات، محاولا إبراز الحقائق والأسباب. تبرز الجزائر، مرة أخرى، في هذا العمل الفني لتسهم في تركيبه وبنيانه وتضفي عليه سحرا ورونقا، لا بطبيعتها ومدنها كما في " قوت الأرض " و" اللاأخلاقي "، لكن بعناصر مختلفة تخفي وراءها أكثر من دلالة. يتمثل أول هذه العناصر في شخص " عثمان " الذي التقى به الكاتب في مدينة بسكرة واتخذه مرشدا في هذه المدينة. تحدث عنه كثيرا وكان في مقدمة من ذكرهم، كان يجد لذّة وسعادة في الحديث عن عثمان، ويعجبه أن يدوّن عنه كرمه اللامحدود وتواضعه الكبير وطموحه القوي وأفكاره التي تنمّ عن ذكاء وعلم. كان يحلو له الجلوس معه وتبادل الرأي. لا زال عثمان شابا، إلا أنه كان يمتاز بقدرات هائلة تدفعه في ذلك إرادته القوية في التحصيل والإقناع والتحليل، ولم يكن لجيد إلا أن يعجب بأفكاره وسلوكه كل مرة [19].

لم يتحدث في مؤلفه هذا عن عثمان في جزء خاص، بل في صفحات عديدة متفرقة. ولم يرتبط بشخص آخر كما ارتبط بعثمان، وكان كلما غادر الجزائر آلمه فراقه [20]. يمثل عثمان في " لو لم تمت الحبة " وجها من وجوه مدينة بسكرة وصورة حيّة من صورها، بل هو الخيط الذي يربط جيد بالمدينة. جاء حديث الكاتب عن عثمان تلقائيا، لكنه يخفي دلالات كثيرة، منها أن جيد يكتشف ذاته باستمرار مع عثمان ويقدّم مبررات عدة لبعض من سلوكه ومواقفه. يمكن النظر إلى هذه الشخصية من زاويتين، لندرك مدى الدور الذي تلعبه الجزائر في هذا المؤلف: الأولى أن عثمان بذكائه وكرمه يمثل جزءا من الشخصية الجزائرية، والثانية أنه شاهد حيّ على مرحلة هامة من حياة الكاتب.

ويتجلى العنصر الثاني الذي تحتل الجزائر من خلاله جزءا هاما في مجموعة من الحقائق والأحداث التي عاشها الكاتب وشاهدها وأضفى عليها بفنه أبعادا وجمالا لتأتي كلاً متكاملا: من الأولاد الذين كانوا يلعبون ويمرحون ويفضل مشاهدتهم على القيام بعمله (الكتابة)، إلى الرعاة وقصصهم بين قطعانهم... كان يعجبه في هؤلاء الأولاد صحتهم ونشاطهم، وكم تمنّى أن يكون منهم ومثلهم[21] في هذه الحيوية وهذا النشاط. وفي هذا دلالة عميقة على تأثره الكبير بحالته الصحية وانعكاساتها على شخصيته، واعتراف مباشر بأن الجزائر بقيت لسنين تكشف عن جوانب خفية وحقيقية من حياته.

زادت الجزائر الكاتب قيمة وأثرته بما كان يسجله عن حياة الجزائريين الاجتماعية التي كان يميزها الفقر والبؤس، بل بلغت حدّ استغلال الأجانب لأهلها

في أبشع صور الظلم والاضطهاد، فقد كان منهم من يأخذ أولادا إلى فرنسا ليسهروا على راحته وخدمته [22]. إنها صورة من صور الاستعمار واضطهاده للشعوب واحتقاره للإنسان، ويتجلى هذا أكثر عندما يتحدث جيد عن " مريم " ومثيلاتها وكيف جعلت منهن معاملات الاستعمار بائعات هوى ولذة بثمن بخس وهنّ لم يبلغن العشرين، كانت مهمتهن الرقص والغناء... في مقاهي بسكرة إلى طلوع الفجر، وكانت السلطات الفرنسية المحلية تنظر إليهن على أساس أنهن "قطيع" لا غير [23]. إنها شهادات حيّة لم يقدر الكاتب على إخفائها، بل تحمّل مسؤولية كشفها.

يبقى، بعد كل هذا، أن دور الجزائر في هذا المؤلف شاهد فعلي على تطور شخصية جيد وسعيها المفرط وراء اللذة والمتعة عندما يذكر جلساته ورحلاته مع الكاتب " أوسكار وايلد " على هذه الأرض وبالتحديد بين مدن بسكرة والبليدة والجزائر، هذا الكاتب المعروف بنزعاته و" سلوكاته " الغريبة، كان له الأثر البالغ فيما وقع فيه جيد من انحراف سبب له آلاما وولّد لديه شعورا بالندم.

4 - اليوميات Journal

جاءت هذه اليوميات طويلة، فعدد صفحاتها يزيد على الألف، بدأها عام 1889 وتابعها إلى غاية 1949، لذا كانت تسجيلا حيّا لمختلف مراحل حياته، وهي لا تخلو من أي موضوع يخطر على بال ولا من اسم لامع في كل ميدان ومجال.

تستوقفنا يوميات جيد بما سجلته عن الجزائر من ذكريات ورحلات وشعب وأدب... وكل ذلك في صور رائعة تفيض صدقا وحبّا، لأنها تمثل قبل كل شيء جزءا هاما من حياة ومن وجود. كان الكاتب حريصا على ذكر كل التفاصيل، فلقد كتب اليوميات لنفسه ويحلو له أن يعيد قراءتها ليتسرجع حياته الماضية لحظة بلحظة، ومن ذلك وصفه للطريق المؤدي إلى إقامته بمدينة بسكرة وما كان يحيط به من حدائق، وما كان يتراءى له من حوله في الأفق من صحراء مترامية الأطراف. يدوّن كيف كان " عثمان " و" الصادق " يأتيان إلى بيته لأخذ قسط من الراحة قبل أن يواصلا طريقهما إلى المدينة، وبخاصة في شهر رمضان، حيث كان يحلو له تقديم التمر والحلويات والمشروبات... وبعدها يسكن كل شيء ليبقى الناي وحده سيّد الموقف. يسجل كيف كان يفضل أن تبقى النوافذ مفتوحة ليسمع كل شيء ويمكنه النهوض باكرا قبل طلوع الفجر ليشاهد على أطراف الصحراء الشمس في منظرها الجميل وهي تشرق كل صباح، ثم كيف يغادر الشاب " لوصيف " الحيّ بعد أن يدقّ على الأبواب، وتخرج الأغنام بأنواعها، ليذهب بعيدا

عند المروج ومرافقته أحيانا ليقص عليه تعلقه الكبير بالصحراء التي أصبحت تمثل كيانه بعد أن كانت توحي له بالخوف، ويروي له جولاته العديدة بين الواحات وحدائق (الوردي) رفقة الأولاد أو وحده. بعدها يجد متعة في تسجيل جلساته مع الأطفال الرعاة وما كان يدور من حديث ولعب حتى ساعات متأخرة من الليل. لم ينس صديقه عثمان الذي خصّه باهتمام كبير، كان يراه يطالع على طريقة " بوفار " (Bouvard)، ويكتب على طريقة " بكوشي " (Pecuchet)، وتعجبه إرادته القوية في التحصيل، وتشجيعه له بتزويده بالكتب كـ " ألف ليلة وليلة "، التي قضى عثمان الليل كله في قراءتها. ينتقل بعدها إلى الحديث عن العرب بلباسهم الأبيض في جلساتهم العفوية على الأرض وهم يتجاذبون أطراف الحديث حتى الصباح، وبخاصة في فصل الصيف [24].

كانت أرادة جيد واضحة في نقل حقائق عاشها وشاهدها، مهما كانت أهميتها. أراد أن يثري يومياته ويزوّد القارئ بمعلومات لم تكن لتخطر له ببال، من بينها ما دوّنه بمدينة " توقرت "، كانت المناسبة حفر بعض الاختصاصيين بئرا على عمق ثمانين مترا، تعلموا هذه المهنة منذ صغرهم ومات الكثير منهم من جراء المخاطر. يعترف لهم جيد بمجهودهم ويعتبره ضربا من الخيال والحماقة، بل قل من الجنون [25]. يذهب القارئ بعيدا بخياله أمام مثل هذه الصورة المخيفة، ويتصور حياة العرب وسط الصحراء والمتاعب التي تصادفهم يوميا، هم في صراع دائم مع الحياة، بينما ينعم غيرهم بوسائل الراحة والرفاهية.

لم ينس أن يضفي على يومياته مسحة رومنسية من أصل جزائري، بتسجيله لمناظر طبيعية مختلفة، حيث استوقفه بمدينة " المغير " منظر يتمثل في شطوط تتراءى من بعيد كأنها البحر في زرقته بجزره وأعماقه يبعث انتعاشا، وبمجرد الاقتراب منه ولمسه تختفي زرقته ليظهرعلى حقيقته [26].

شبّ جيد على حبّ الموسيقى وأعجب بعمالقتها الغربيين، لكن ذلك لم يمنعه من أن يعجب بموسيقى الشرق، كانت تفتنه ويفضل الاستماع إليها على الكتابة مهما يكن موضوعها. إنها موسيقى تثير النفس وتبعث على الطرب، رغم آلاتها البسيطة كالناي والطنابير... كان يحنّ - إلى سماعها حتى وهو في شوارع " روما ". لم يجد الكاتب تفسيرا لغياب الفرنسيين والأجانب عن الحفلات العربية التي كانت تقام وتدوّي فيها الموسيقى.. كان أصلها محل جدل بينه وبين عثمان، حيث كان هذا الأخير يرى أن أصلها الشيطان، والعرب يعتقدون أن الآلات الموسيقية هي آلات دار جهنم، ويراها جيد من صنع الإنسان بوحي من الله [27]. يواصل حديثه مع عثمان عن الموسيقى والشعر الشعبي وما كان متداولا في الأوساط من أغان دينية واجتماعية... وكيف كان حريصا على معرفة

الكثير منها بفضل ما كان يقدمه عثمان من ترجمات، مثل هذه القصيدة التي سجلها بكل عناية وأمانة:

إني رجل فقير، وغدا
سأبيع بعض أغنامي وأشتري خواتم جميلة...
التفتت إليّ " باية " اليوم عند مروري،
كان يعذبني فستانها الأبيض
أقضي الليل كله ساهرا
ووجودي يثير نباح الكلاب [28].

فالجزائر، إذن، حاضرة في يوميات جيد بصور مختلفة، وبطرائق مباشرة كما تبين، وقد تراها في صفحات عديدة بطرائق غير مباشرة، ولعل ما قاله طه حسين يؤكد هذه الملاحظة: « ولإفريقيا الشمالية أثر خاص ممتاز في حياته الأدبية، وقد ألهمته أجمل كتبه وأروعها. ولم يتصل جيد بشعب بعد الشعب الفرنسي كما اتصل بالشعب العربي في إفريقيا الشمالية » [29].

وإذا كان لا بد من كلمة شاملة في شأن يوميات جيد وعلاقتها بالجزائر، فهي أن هذا البلد احتل حيزا واسعا هامّا، امتد من نهاية القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، ومن الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب.

- الهوامش والإحالات

1 - اندريه جيد كاتب فرنسي من مواليد 1869 بباريس، من أب بروتستانتي وأم كاثوليكية. تميزت سنواته الأولى بنشاطات واهتمامات متنوعة بفضل عناية والده، حيث مكنه من الاطلاع على كتب هامة كالأوديسا والسندباد البحري وموليير... وظل مواظبا على المطالعة والقراءات المختلفة، مما جعل منه تلميذا متميزا في مراحله الدراسية. كان يحبّ الترحال فزار العديد من الدول كإيطاليا وسويسرا وألمانيا.. وأحب الشرق وعشقه وكتب عنه.. وزار الجزائر لمرات =، وظل يكتب عنها دون انقطاع (من 1893 إلى1949).

وإذا أردنا اختصار حياة جيد، فإننا نقول إنه نشر خلال أكثر من نصف قرن مجموعة هائلة من الكتب والأعمال، تحدث فيها بصفة المطلع المتمكن في مجالات عديدة كالفلسفة، والدين، والحضارة، والأدب، من خلال المسرح، والرواية، والنقد، والشعر، والأسطورة..

Chaigne L., vies et oeuvres d'écrivains, Editions Lanore, 1953, p. 132 . -2

3 - أندريه جيد، قوت الأرض والقوت الجديد، إشراف الدكتور شكيب الجابري، منشورات عويدات، بيروت، ط 1، يناير 1965، ص 198 - 199.

4 - طه حسين، فصول في الأدب والنقد، دار المعارف، القاهرة، ط 4، 1961، ص 146.

André Gide , le voyage d'Urien , Romans, récits et soties , oeuvres lyriques , Editions Gallimard Paris 1958 , p. 22 . - 5

6 - أندريه جيد، قوت الأرض والقوت الجديد، ص 198.

7 - المصدر نفسه، ص 185.

8 - المصدر نفسه، ص 50 - 51.

9 - كتب المترجم " أتمان " عوض " عثمان " بالفرنسية (Athman).

10 - المصدر نفسه، ص 134.

11 - المصدر نفسه، ص 53.

12 - المصدر نفسه، ص 56.

13 - المصدر نفسه، ص 143.

L. P. Quint, André Gide : Sa vie, son oeuvre, librairie Stock , Paris 1923 , p. 29 . -14

E.U.Bertalot, André Gide et l'attente de dieu, lettres modernes , Minar , Paris 1967 , p. 75. -15

16 - نادية محمود عبد الله ، الرحلة بين الواقع والخيال في أدب أندريه جيد، مجلة عالم الفكر، عدد 4 ، مجلد 13 ، الكويت ، 1983 ، ص 122 .

André Gide , (مرجع سابق) L'immoraliste , p. 392 , 464 , 466 -17

18 - المصدر نفسه ، ص 388 ، 389 ، 466 .

André Gide, Si le grain ne meurt , Journal 1939 - 1949, souvenirs , Editions Gallimard, 1954 p. 562 . -19

20 - المصدر نفسه ، ص 604 .

21 - المصدر نفسه ، ص 563 .

22 - المصدر نفسه ، ص 600 .

23 – المصدر نفسه ، ص 564 .

24 – مصدر سابق Andér Gide, Journal 1889 - 1939 , p. 74 , 75 , 76 , 77

25 – المصدر نفسه، ص 79.

26 – المصدر نفسه، ص 81، 82.

27 – المصدر نفسه، ص 82، 83، 85، 86.

28 – المصدر نفسه، ص 86.

29 – طه حسين، فصول في الأدب و النقد، ص 149.